مجلة دراسات نفسية ISSN 2353-0324
المجلد : 12 العدد : 01 السنة : 2021 ص ص 46 – 55

مكانة الطفل والمراهق مجهول النسب في هوام الرومانسية الأسرية

The place of the child and the adolescent of unknown parentage in the fantasy of the family romance

بوسكين سليمة*، جامعة الجزائر2 أبوالقاسم سعدالله، bouskines@yahoo.fr

تاريخ الارسال : 2021/04/27	تاريخ القبول : 2021/06/12	تاريخ النشر : 2021/12/12	المؤلف المرسل : بوسكين سليمة

الملخص:

يحتاج الطفل إلى الإحساس بالأمان وهذا الإحساس لا يتأتى إلا في سياق علائقي وعاطفي وذلك من خلال الرعاية والحماية الوالدية. هذا بدوره سيعطي للطفل الإحساس بالانتماء النفسي والبيولوجي لأسرته؛ وعندما يتعلق الأمر بطفل مجهول النسب الذي سيدرك في ما بعد أنه طفل تم التخلي عنه، هنا تبدأ المعاناة المرتبطة بالتساؤل حول هويته: من أكون؟ وهذا من شأنه أن يفقده ثقته في ذاته وفي الآخرين خاصة مع بداية الدخول في مرحلة البلوغ والمراهقة. وهي مرحلة جد حساسة لأنها ستضع المراهق في مواجهة حقيقية مع الصور الهوامية للوالدين.

كلمات مفتاحية: البنوة؛ الحاجة إلى الانتماء؛ هوام الرومانسية الأسرية

Abstract:

The child needs a sense of safety and this can only be done in a relational and emotional context through parental care and protection, that will give the child a sense of psychological and biological belonging to his or her family; and when it comes to an unknown child who will later realize, has been abandoned .The suffer associated with the question of identity will begin: who am I? This would lose him confidence in himself and others ,mostly in adolescence. It is a very sensitive stage because it will put the teenager in a real confrontation with the parental images.

Keywords: affiliate; loss of identity; family romance fantasy;

مقدمة:

الأطفال هبة من الله ولم يطلبوا أن يولدوا وأقل ما يمكن تقديمه لهم هو الحب والرعاية والحماية التي يجب أن يوفرها لهم موضوع حامي جيد كفاية ليسمح للطفل بعد ذلك لتكوين ذاته والوصول إلى الاستقلالية دون الحاجة إلى الآخرين خاصة في أخذ القرارات ومواجهة متطلبات الحياة بما تحمله من المتناقضات ومن الصراعات. ولكن بالنسبة لطفل مجهول النسب قد يجد صعوبة في إثبات الذات والوصول إلى سن الرشد مروراً بفترة البلوغ والمراهقة دون أن يمر بمعاش مؤلم خاصة بعد أن يدرك فعلياً أنه طفل مجهول البنوة وسجل تحت اسم مجهول وهو طفل قد تم التخلي عنه من طرف أبويه البيولوجيين وهذا قد يجعله ينظر إلى نفسه على أنه طفل منبوذ وغير مرغوب فيه مما قد يؤدي به إلى تطوير سلوك عدائي سواء موجه نحو الذات أو نحو الآخرين، وهذه الأخيرة قد تترجم من خلال السلوك الرفض والتمرد على الأفراد الذين تكفلوا به خاصة مع بداية بلوغ الطفل ومحاولته اليائسة للبحث الخيالي عن الصور الوالدية المفقودة.

أهداف الدراسة:

يهدف هذا المقال إلى محاولة فهم سيكولوجية الطفل مجهول النسب سواء كان طفل أخذ في كفالة من طرف أبوين المتبنيين أو بقي في دار الأيتام، وذلك من خلال القراءات النظرية لباحثين تحليليين حول كيفية مواجهة الطفل لهذه الحقيقة وكيف يمكن له أن يعوض هذا الرابط البيولوجي المفقود من خلال هوام الأسرة الرومانسية.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في توجيه اهتمام المختصين والعاملين والمسئولين عن هذه الفئة نحو ايجاد حلول تحمي الطفل مجهول النسب من فقدان معالمه الإنسانية بسبب فقدانه للانتماء النفسي بفعل فقدانه للانتماء البيولوجي. أكثر من ذلك فلقد انتزع منه الحق في معرفة من هم سبب وجوده في هذا العالم ومحاولة إدماجهم بشكل فعال في المجتمع لتعزيز الإحساس بالانتماء لديهم والتخفيض من شدة الإحساس بالوحدة والنبذ والرفض لديهم، فهم الضحايا الأبرياء في لعبة طائشة بين راشدين هما رجل وامرأة.

أولاً: إشكالية الحاجة إلى الانتماء:

يكون الطفل حديث الولادة في تبعية قصوى مع موضوع الأم أومن يعوضها وهذه الاعتمادية تجد أصلها حسب بوس.ف وقراندري.م (Pauss,V.et Grandry.M, 2001) في حاجة الطفل للبقاء حياً وهذا بدوره سيولد لديه الحاجة إلى الانتماء إلى الوسط الذي يعيش فيه.

وبفضل التفاعلات المتبادلة بين الطفل الصغير والأم ينشأ الإحساس بالانتماء عند كليهما وهذا ما يعزز الإحساس بالوجود واستمراره من خلال التسجيل في الكرونولوجيا الزمنية.

حيث أنه في هذه المرحلة يتم ترسيخ الإحساس بالأمن وهوجوهري لنموسوي وهذا يبعث بنا إلى نظرية التعلق لـ بولبي.ج وأينسوورث.م (Lelord,F,.André2001, C,p.322) (Bowlby,J et Ainsworth) وكلامهما تكلما عن «فطرية التعلق الذي يربط الطفل بأمه والذي يظهر من خلال تبادل النظرات والملامح والحنان وسلوكات المص، حيث تؤثر نوعية هذه العلاقة على تطور الرضيع والراشد مستقبلاً» وعليه فهناك ثلاث أنواع من التعلق وهي: التعلق الآمن والتعلق المتجنب والتعلق المزدوج، والنوعان الأخيران يمثلان اختلال في التفاعلات طفل- أم مما يؤدي إلى إعاقة معرفية وعدم التكيف في التبادلات الوجدانية الأولية.

فالأمر يتعلق بوجود موضوع أمومي مستقر وجيد كفاية حتى يمكن للطفل الصغير أن يدرك ذاته ويميزها عن الآخرين وهذا يعني أنه في غياب الرعاية النوعية المبكرة للطفل فلا يمكن له أن يدرك وجوده إلا من خلال التفاعلات المتبادلة وبفعل التكرار سيتم إدراك موضوع خارجي منفصل عن ذات الطفل وهذا بفعل فترات التناوب بين الغياب والحضور لنفس الموضوع الأمومي أو الشخص الذي يرعاه. والكلام عن الحرمان العاطفي مرتبط حسب الباحثة لوتر.ن (Loutre,N,1981) بوجود وضعيات مختلفة؛ فقد يكون الطفل يتيما ويعيش في دار الأيتام أو يعيش مع أبوين جافيين أو يكون الطفل في حد ذاته يعاني من عجز في الدخول في علاقة مع الآخرين. وفي هذه الحالات سيكون هناك عجز أولي ومبكر في تكوين ذات مستقرة مما يعيق تطورها واستقلاليتها في مراحل بعدية.

1.مفهوم البنوة:

يشير مصطلح البنوة إلى الرابط الخاص الذي يجمع الطفل بوالديه. فالآباء هم الذين يحددون النسل والأعضاء، سواء كانوا قريبين أو بعيدين من نفس العائلة، الإخوة والأخوات، الأجداد والأحفاد (Burraux,A,2011,p24). أما الأبوة فهي ترمي إلى فكرة انتماء عريض لنسب سواء من جهة الأب أومن جهة الأم، أو حتى غير متمايز في حالة وجود جد مشترك (Burraux,A,2011,p24)

تحدد بنوة (la filiation) الفرد حسب فيدالهي.ك (Vidailhet,C,2008,p 3): «من خلال ثلاث أبعاد؛ الأول مرتبط بالأصل البيولوجي والثاني مرتبط بالاعتراف القانوني له والثالث مرتبط بالبعد النفسي وهذا الأخير هو الذي يسمح بالتزاوج بين ما هو بيولوجي وما هو متعارف عليه اجتماعياً»، وهذه البنوة النفسية هي التي تترجم الانتماء النفسي وهو الذي يعطي للفرد الحق في أن ينتسب إلى اسم العائلة وبالتالي سيضعه في السجل التاريخي الخاص به وبآبائه وسيكون الحلقة التي ستنقل الموروث العائلي للجيل القادم في شجرة العائلة وذلك في إطار زمني ديناميكي فالطفل سيصبح الأب وهو بدوره يترك المكان لابنه. ورابط البنوة هو الذي يسمح بتعزيز الإحساس بالهوية على أساس قاعدة بيولوجية وهي بذلك تربطه وفي نظام رمزي بمكانته المتميزة في سلسلة العائلة.

وبالنسبة للطفل مجهول النسب فرابطة البنوة (La filiation) الخاصة به قد تم مصادرتها وأكثر من ذلك فهو محروم من هذا الحق وينكر عليه ويرى كل من الباحثين بوس.ف وقراندري.م (Pauss, V. et Grandry, M, 2001) أن

إنكار حق البنوة سيؤدي فقد الإحساس بالانتماء إلى مجموعة واضحة ومستقرة تسمح بالتفاعلات اللازمة لبناء وتكوين وتمييز ذات الإنسانية والوصول بها إلى الاستقلالية بكل استقرار وثقة.

وفي الحقيقة لا يدرك الطفل مجهول النسب أنه محروم من حق الحصول على لقب حقيقي الذي هو مرتبط مباشرة بالرابط البيولوجي لأبيه الفعلي إلا بعد أن يكتسب اللغة ويبدأ بالتساؤل حول طريقة ولادته وكيف جاء إلى العالم وهي أسئلة صعبة بالنسبة للعاملين في دور الأيتام وأيضاً للآباء الكافلين للطفل اليتيم حيث سيكون على الراشدين إبلاغ الطفل بالحقيقة لأنه سيكتشفها عندما يحصل على وثائق الهوية فيجد أنها لا تثبت بنوته إلى أبويه الحاليين أو إلى المربية التي ترعاه في دار الأيتام. وقد يتفاجأ الطفل أمام حقيقة أنه طفل متبنى وقد تم التخلي عنه من طرف أبويه الحقيقيين ووضع في الميتم حيث يوضع الأطفال المنبوذين وغير المرغوب فيهم حسب تصوره.

2.تأثير الإبقاء على سرية البنوة والأصول على الحياة النفسية للطفل والمراهق مجهول النسب:

عندما يدرك الطفل مجهول النسب أنه قد تم التخلي عنه لصالح الدولة (un pupille de l'état) ويطلق عليهم كذلك في المجتمع الجزائري بـ " أولاد الدولة" أو" أولاد l'assistante "، فهذه الحقيقة ستكون بمثابة صدمة حقيقية له وقد تؤدي إلى صعق وتوقف في الأجهزة الإدراكية وسيضع الطفل على محك فقدان معالم شخصيته. وحسب فيرديي.ب وسولي.م (Verdier,P. et Soulé, M, 1986) فالصدمة هي تقارب حقيقي مع الموت ومع خطر الفناء وهي تمس اندماجية الأنا والذات مباشرة وهو اختراق لنظام حاو وحامي لطالما انتمى إليه الطفل وهو الذي يسمح له بالنمو وبالتطور وتأكيد الذات والوصول إلى الاستقلالية.

يجد الطفل نفسه بصورة مفاجئة دون أبوين معروفين وقد تنقطع علاقته فجأة بأبويه الحاليين ومع المحيط ككل وسيكون صورة سيئة ومتدنية حول ذاته وسيلوم نفسه لأنه سيعتقد أنه قد يكون السبب في تخلي أبويه الحقيقيين عنه فهو ولد تحت اسم مجهول وأمه التي وضعته قررت ألا يتمكن هذا الطفل من إيجادها أبداً مادام قد طلبت حق الإبقاء على سرية هويتها وهذا ما يزيد من ألم الطفل مجهول النسب وهو ألم عميق يمس نرجسية الطفل مباشرة وقد تؤدي إلى بروز عدوانية ستوجه نحو الذات على شكل مشاعر احتقار ولوم لذاته لأنه حسب تصوره هو طفل غير محبوب وهوية وجوده سرية وهو قد يبعث حسب الباحثين دولتو.ف ورابوبور.د وتيس.ب (Dolto,F. et Rapoport,D. et This,B,1990) على سرية الفعل الجنسي وهو طفل وليد نزوة جنسية عابرة بين رجل وامرأة دون هدف الإنجاب.

وفي هذا السياق يرى بارجي.م (Berger,M,1997) أن الطفل عندما يدرك الحقيقة المرتبطة بسرية أصله البيولوجي فهذا يجعله يكون تصورات حول جسده والصورة المستعارة التي يعطيها لجسده هي تأخذ شكل ومعنى الفضلات، فالطفل مجهول النسب سيرى نفسه أنه فضلات تم التخلص منه ورمي به في سلة المهملات وهذا التصور يكون مصحوب بمشاعر الخزي والخجل وهو يبعث على وجود جرح نرجسي بسبب عدم تقبل والديه الفعليين له.

وحسب ما تقدم فالطفل يفضل أن يعتبر نفسه فضلات على أن يلوم والديه أو يعتبرهما سيئين وقد يفكر الطفل أن سبب التخلي عنه راجع لأسباب قاهرة دفعت أمه إلى التخلي عنه وكل ذلك للحفاظ على تصوراته الخيالية المرتبطة بوجود أبوين مثاليين وكل اللوم يقع عليه وحده لأنه خيب آمالهما فيه.

ثانياً: هوام الرومانسية الأسرية:

تكلم فرويد.س عن حالة هوام الرومانسية الأسرية وذلك في نص له ظهر في كتاب لرانك.أ (Rank,O) عام 1909 وهو« *أسطورة ميلاد البطل* » (le mythe de la naissance du héro) (Dayan.J,2013) ، حيث تقتضي الأسطورة منح الأب لطفله المولود خصائص الأنا المثالي. ويشرح رانك.أ أنه في حالة التخلي عن الطفل فهذا يترجم عدم رغبة الأب في وجود من يخلفه أو طفل سيصبح بطلاً، أي يرفض البنوة والانتساب إليه. وبالتالي فالبطل يتم التخلي عنه ويبقى هناك لغز حول هوية والديه أو أحدهما وكما هو الحال للنبي موسى عليه السلام الذي تم التخلي عنه ورميه في النهر، والنبي عيسى عليه السلام الذي ولد بدون أب بيولوجي، وفي الأساطير الاغريقية نجد أوديب، وكذلك الأسطورة الرومانية حول روميلوس (Romulus) الملك المؤسس لروما والذي تم التخلي عنه هو وأخوه التوأم وتم رميهما في النهر واللذان تم إنقاذهما بعد ذلك ليصبحا بعد ذلك بطلين. هذه الأمثلة تمثل أسطورة البطل المتخلي عنه والذي يعود محققاً قدراً مختلفاً وبطولياً ومخلداً لتاريخ غير محدود لمساره.

الرومانسية الأسرية (roman familial) (Berger,M,1997) هو هوام واعي يظهر عند معظم الأطفال (الشرعيين وغير الشرعيين) ما بين 6 سنوات و11 سنة وهو يترجم من خلال تخيل الطفل لوجود أبوين آخرين بيولوجيين أفضل من أبويه الحقيقيين والحاليين ، وهذا الهوام ضروري في مرحلة من مراحل التطور الوجداني والطفل يتمسك به للدفاع ضد الوضعيات المحبطة التي قد يعيشها مع والديه الحقيقيين، وحسب الباحثين فيرديي.ب وسولي.م .(Verdier,P et Soulé, M, 1986) يأخذ من الأهمية من حيث أنه يلعب دوراً ديناميكياً في تحديد نوعية العلاقات التي يربطها الطفل مع الصور الوالدية سواء كانوا بيولوجيين أومتبنين أوشرعيين حقيقيين.

أما ونيكونت (D.W.Winnicott) (in Berger, M, 1997, p 67) فيصف هذا الهوام على نحوأن: « كل الأطفال يتخيلون أنهم ينحدرون من آباء آخرين ليسوا الحاليين، من الملك والملكة...» وحسبه فهذه الأفكار الخيالية هي ضرورية وهي تشكل جزءاً من اللعب الخيالي للأطفال بالموازاة مع التقمصات للأبوين الحاليين، وهذا اللعب يساهم في تكوين الحدود بين الواقع والخيال والتمييز بينهما وهذا يعني تكون الهوية الذاتية.

يبعث هذا الهوام أيضاً من المنظور التحليلي على أنواع القلق المرتبطة بالصراع الأوديبي والروابط الجنسية بين الراشدين وبمسألة الإنجاب أيضاً، وهي تدفع بالطفل إلى البحث عن توافق نفسي يجعله يخفض من شدة هذه التوترات والإبقاء على علاقة مرنة ومقبولة مع الآباء. لذلك سيلجأ إلى تكوين هوام أنه طفل ضائع عثر عليه وهو سليل عائلة ثرية، وأبواه سيعطيهما صورة مثالية؛ فهما قويان ورائعان ولا يحبطان أبداً طفلهما. وبالتالي وحسب فرويد.س (in Marcelli,D. et Cohen,D,2016) فهوام الرومانسية الأسرية جد شائع في التفكير الطفلي وهو يتعلق

بالدفاع ضد الإحباط الذي يتلقاه الطفل من والديه الحقيقيين وهذا الهوام يبدأ بالتناقص مع الدخول في مرحلة البلوغ والمراهقة ويصبح الطفل ناضج كفاية ليتقبل حقيقة والديه الحقيقيين والحاليين ومن هنا يدخل مفهوم البنوة المرتبطة بالانتماء إلى الأبوين الحقيقيين والبيولوجيين.

طرح الباحثان دولانجوكيار،ل (De lajonquière,L) وبيريرا،م.ر (De (Pereira,M.R) lajonquière,L. Pereira,M.R,2014) إشكالية جديدة حول النماذج والأشكال الأسرية الحالية وأيضاً تكلما عن نماذج أسرية خاصة في مجتمعات وقبائل قديمة وتقليدية ما تزال تتبع طقوس وتقاليد خاصة مرتبطة بالشريك وبالإنجاب وبالبنوة وبالنسب وهي مختلفة تماماً عن مفهوم الأسرية التقليدية (أي وجود الأب والأم والأولاد). ويرى الباحثان أن هذه النماذج بدأت تصبح نماذج عصرية لصورة الأسرة حالياً، وقد يكون هذا التغير الاجتماعي لصورة الأسرة مرتبط بظهور ما يسمى حالياً " الطفل العرض" (l'enfant-symptome)

تجدر الإشارة أيضاً أنه كذلك في العصر الحالي لم تعد مسألة البنوة تأخذ من الأهمية في البلدان الغربية، والتي تفصل الدين عن الحياة الخاصة للفرد وتحمي الحريات الشخصية خاصة بالنسبة للمرأة وحققها في عدم الإنجاب أو اللجوء إلى الإجهاض الطوعي إذا لم ترغب في الطفل. ضف إلى ذلك لم تعد مهمة القاعدة المرتبطة بالإنجاب هي تلك النابعة من زوج غيري جنسي رجل – امرأة، ولكن يمكن الحصول طفل بفضل معطي المني، ويمكن أن يكبر الطفل مع زوج مثلي جنسي (أنثوي أو ذكري)، أو فقط مع الأم التي قامت بتخصيب اصطناعي لمعطي مني غير معروف بفضل ما يسمى ببنوك المني، دون أن ننسى ظاهرة استنساخ البشر التي تنتج فرداً نوعياً باختيار خصائص مورفولوجية ومعنوية بصفة مخبرية. كل هذه الحالات تعكس وجود بنوة عصرية مطموسة المعالم، لا تأخذ بعين الاعتبار الانتماء البيولوجي والاجتماعي، ولكن هي تركز على خصائص الفرد بحد ذاته، ولا تعطي الأهمية للروابط العائلية ولا للجذور والإرث الذي ينتمي إليه الفرد؛ وهذا التطور قد يعدل الكثير من الهوامات الكلاسيكية المعروفة ومن بينها هوام الرومانسية الأسرية.

1.مكانة الطفل والمراهق مجهول النسب في هوام الرومانسية الأسرية

في الحقيقة لا يمكن أن نربط بين سرية الأبوين البيولوجيين مع عدم تكون الذات والهوية ، ذلك أن إدراك الطفل لهذه الحقيقة يأتي بعد سنوات من الرعاية ونوعية هذه الأخيرة ، ويتعلق الأمر بالمرحلة الطفلية المبكرة ونوع الرعاية التي تلقاها الطفل أثناءها. وفي هذا السياق أمكن الكلام عن وجود اختلال في تكوين الذات وفي تكوين الهوية إذا عانى الطفل من الحرمان العاطفي في هذه المرحلة جد المبكرة، والتي قد تخلف اضطرابات سلوكية وانفعالية وعلائقية حسب درجة الحرمان العاطفي الذي عاشه الطفل الصغير وهي الأعراض التي وصفها سبيتز.ر (Spitz,R) (Soulé,M. et Lauzanne,K,2004) تحت مفهومين رئيسيين وهما الإكتئاب الإعتمادي (dépression anaclitique) والاستشفاء (l'Hospitalisme) فالمفهوم الأول مرتبط بالحرمان العاطفي الجزئي، أما الثاني فهو مرتبط بالغياب الكلي للرعاية والعناية الأمومية، حيث سيستجيب الطفل بسلوكات ووضعيات تعبر عن رفضه للحياة لدرجة أنه سيرفض الأكل ويرفض التفاعل مع أشخاص آخرين غير الأم. وكلتا الوضعتين قد ترتبطان بحالة الأطفال الموجودين في دور الأيتام

وقد يعانون من عدم استقرار الموضوع الأمومي والذي بدوره قد يؤدي إلى اختلال في تحديد معالم الهوية عند الطفل مجهول النسب وعدم مساعدته على الخروج بشخصية مستقلة ومتفردة. وهذه الوضعيات قد تنطبق كذلك على أي طفل حرم من العاطفة منذ الطفولة المبكرة حتى في وجود أم لكنها سيئة غير قادرة على رعاية طفلها وجدانياً وعاطفياً، وبالتالي عاجزة عن إعطاءه الإحساس بالأمن وإشباع حاجته للانتماء النفسي لها.

يبقى دور هوام الرومانسية الأسرية هو نفسه عند الأطفال خاصة في فترة الكمون ولكن تتعقد الأمور مع الطفل مجهول النسب سواء أخذ في كفالة أو بقي في دار الأيتام خاصة، عندما يدرك أن أبويه الحاليين ليسا أبواه الفعليين أو عندما يسأل المربية في الميتم إذا كان في بطنها قبل أن يولد، وهو سؤال شائع جداً عند الأطفال عندما تبدأ عندهم عملية التفكير والتأمل حول كيف وجد هذا العالم ومن خلقه وكيف جاء إلى هذا الوجود، وهذا يعني البحث عن الانتماء العائلي، والأجوبة على هذه الأسئلة مهم لتعزيز هوية الطفل وهي تعتمد على قاعدة التأكد من أصل وجوده وهذا الذي سيعطيه الرغبة في التطور وفي النمو.

يسمح الدخول في المراهقة باستكمال العمل النفسي غير المكتمل في مرحلة المراهقة، كما يسمح بتعزيز الذات وتوحيدها ويصبح أكثر تقبلاً للإحباط. والتصورات حول الذات التي سيكونها المراهق ستتموضع بين ما هو مرتبط بالذات نفسها وبين تلك المرتبطة مع وبالآخرين .

وتسمح التصورات التي يكونها المراهق حول ذاته من الترسيخ والتسجيل في التاريخ الذاتي المرتبط بوجوده، وفي التاريخ العائلي عبر مختلف الأجيال، والذي سيحمي مستقبله الذي سيكون بلا شك مرتبط بماضيه، كما عبر عنه بيون (Bion.W.R, 1977) :« ذاكرة المستقبل» (Dayan.J,2013,p3) . هذا السياق يضمنه دور الآباء الذين يمنحون لأطفالهم كما يقول الحكمة الصينية: « جذور وأجنحة (Dayan.J,2013,p3) » .

بالنسبة للطفل المتبنى والذي سيصبح مراهقاً بعد ذلك، فمن الصعب الإجابة حول المسائل المتعلقة بماضيه، وهذه الأخيرة هي التي تسمح له بالإسقاط في المستقبل وبناء أنا صلب وواضح، ولكن في غياب لتاريخه البيولوجي والتمثيلات للصور الوالدية التي يجب أن تكون مرسخة في الذاكرة، وهي التي ستعطي من جهة للطفل والمراهق مجهول النسب الرغبة في الحياة والرغبة في النمو ويتمكن من حب الآخرين، ومن جهة أخرى تسمح له بتقليص التناقضات والصراعات مع الوالدين هواماً وذلك حتي يتمكن من بناء قصة شخصية وواضحة والتي تتضمن التمثيلات الاجتماعية لأصول نسبه وبنوته، بالإضافة إلى تجاربه الخاصة والتي سيتم حفظها في ذاكرته.

ستسمح هذه السياقات للمراهق بإعادة بناء هوام الرومانسية الأسرية على نحوه الخاص، وهذا بدوره يعيد تنظيم ذاكرته وفق ما يتناسب مع التطور النفسي العادي والمتكيف.

ولكن بالنسبة للمراهق مجهول النسب ستبدو هذه السياقات مستحيلة وسيجد نفسه في مواجهة لماضٍ مجهول وغامض، وهذا يتطلب منه إعادة بناء نفسه حتى يتمكن من الاندماج في التمثيل الاجتماعي للبنوة واستدخال تجاربه الخاصة (Dayan.J,2013)

المشكلة بالنسبة لهوام الرومانسية الأسرية هو أنه يصبح حقيقة وليس هوام ذلك أنه حقاً لدى الطفل مجهول النسب والدين آخرين بيولوجيين وهما حقيقيين، وحسب (Marcelli,D. et Cohen, D,2016) فهذا الهوام لا يختفي مع الدخول في مرحلة المراهقة وإنما يزداد شدة وهو الذي يكون وراء رغبة المراهق الشديدة في معرفة هوية أبويه الحقيقيين أو على الأقل معرفة اسم أمه أو حتى رؤية وجهها. فالبحث الهوامي عن والدين مثاليين وخارقين سيتجسد في الواقع من خلال البحث عن الأبوين البيولوجيين وهنا قد يطور الطفل المتبنى سلوكات عدائية سواء اتجاه العائلة التي كفلته أو اتجاه العاملين في الميتم معتقداً كما في الهوام الأصلي للرومانسية الأسرية أنه طفل قد تم إبعاده عن عائلته الحقيقية والمثالية وقاموا بتبنيه وإخفائه عنها.

في نظرية فرويد.س حول العصاب يدرج هوام الرومانسية الأسرية في إطار الحلم العادي أو تنشيط هوامي وهو يسمح بالتحايل وتحقيق الرغبة المحرمة بطريقة هوامية والحصول على الشعور بالعظمة. حيث في البداية يقوم الطفل بمثلنة والديه ويبحث إلى التشبه بهما، وهذا التقمص الأول الذي يأخذ طابع المنافسة سيتعرض لنوع من الإحباط، ونتيجة لذلك سيحلم الطفل بعائلة أخرى ستتبناه، وهي عائلة لا تحبطه وتلبي رغباته وتتميز بخصائص مثالية. هذا الحلم سيصبح بمثابة حقيقة موجودة لأن الطفل والمراهق مجهول النسب لديه والدين حقيقيين ولا يعرفهما وهما يأخذان صور ممثلنة في ذهنه ويختلفان عن الشخص الذي اعتنى به أو العائلة التي تبنته أو كفلته. لذا سيتساءل الطفل والمراهق في ما بعد لماذا تم التخلي عنه، ولماذا تبناه آباء آخرين(Dayan.J,2013). للخروج من هذه الوضعية المتناقضة استوجب إعادة بناء هوام الرومانسية الأسرية من خلال استدخال الآباء المتبنين داخل هذا الهوام لكي يقوم بدوره في تخفيض الصراعات المرتبطة بالرغبات المحرمة عند الطفل المتخلى عنه.

وبالنسبة لـ بارجي.م (Berger,M,1997) تزداد شكوك الطفل مجهول النسب حول بنوته وحول أصل خصائصه الجسدية والمورفولوجية خاصة في مرحلة المراهقة وهي مرحلة التحولات الهرمونية والجسدية وستظهر الخصائص الذكرية عند الولد والخصائص الأنثوية عند الفتاة. وهذه الأسئلة والشكوك تكون غير موجودة عند الطفل العادي ما دام هذا الطفل ليس وليد ظروف سرية فهو يعرف أبواه ورابطة الحب النرجسي والانتماء النفسي منذ البداية أي منذ لحظة ولادته أو ربما منذ أول يوم من الحمل وهذا يضمنه الرابط البيولوجي الذي سيسمح بتسجيل الطفل في ما بعد في السجل التاريخي الديناميكي لشجرة العائلة ككل.

2.التجسيد الحقيقي لهوام الرومانسية الأسرية عند الطفل والمراهق مجهول النسب:

تقتضي فترة المراهقة وبداية الدخول في البلوغ أن يتقبل المراهق الانفصال عن الأبوين الراشدين ويقوم بعمل الحداد على مرحلة الطفولة حيث كان يتمتع بالحماية الوالدية، وهنا وكما يرى فنسون.م (Vincent,M,2005) فالصورة المثالية

التي كونها المراهق عن والديه في فترة الكمون ستتقلص نتيجة الإحباط الذي يتلقاه منهما وهو يوافق أيضاً فكرة التخلي عن هوام الرومانسية الأسرية وهذا بدوره سيساهم في الوصول إلى الاستقلالية الذاتية وتمهد له الطريق للدخول في تجارب حقيقية مع الآخرين وبالضبط مع الجنس الآخر، فالشاب الناضج سينجذب نحو الفتاة والعكس صحيح.

وبالنسبة للطفل والمراهق مجهول النسب وفي غياب الرابط البيولوجي الذي أنكر عليه فهو سيجد صعوبة في وجود مرجع حقيقي لإثبات هويته وأصله وانتمائه والألم سيزداد مع ظهور الرغبة في الزواج وفي إنجاب طفل وهي رغبة طفلية ممكنة التحقيق مع الدخول في سن البلوغ وبداية طرح الإنتاجات التناسلية. وهنا يجد المراهق نفسه في مواجهة حقيقية كونه طفل غير معترف به وأبواه الحقيقيان قد تخليا عنه، وهو بذلك يرى نفسه الملام فقط وسيكون صوراً سيئة عن ذاته ومما يتدنى لديه تقديره لذاته لأدنى المستويات فهو طفل الخزي والعار وهو غير مرغوب فيه بل هو نتاج نزوة وشهوة عابرة ولم يشكل حلم أبويه الفاعلين بل هو مصدر خجلهما. وهذه التصورات السيئة التي يكونها عن ذاته سيصحبها إحساس شديد بالألم النفسي وبالضياع وأيضاً إحساسا بالفراغ العاطفي وبالوحدة وبأنه شخص مرفوض ومنبوذ وقد تؤدي إلى مشاعر الاكتئاب واليأس لكونه لا يعرف من يكون، ومن هي أمه ومن هو أبوه وإلى أي مجموعة أو عائلة ينتمي. وكل هذا سيؤدي بالمراهق إلى تطوير كراهية نحو ذاته وسيحاول معاقبتها من خلال توجيه عدوانية نحو الآخرين لإعطائه الأجوبة عن أصل هويته وأصل بنوته.

وفي غياب الرعاية والحماية وأشخاص قادرين على احتواء غضب الطفل الذي سيصبح مراهق وراشد بعد ذلك، فقد يجد نفسه الطفل مجهول النسب يعيش في دوامة من الضياع وقد يفقد معالم شخصيته.

إذا لم نشرح له سبب وجوده في الحياة وربما مساعدته على إيجاد أبويه الفعليين حتى تهدأ نفسه وأمكن له أن يعطي حدوداً ومعالم لملامحه النفسية والجسدية ويجد ما يربطه مع والديه الحقيقيين من خصائص خارجية كلون الشعر والعينين والقامة الخ... وهذا سيعزز لديه الإحساس بالانتماء النفسي والجسدي معاً.

الخاتمة:

كل طفل لديه الحق في الحصول على الأسرة ولكن بالنسبة للطفل مجهول النسب والذي أنكر عليه الحق في معرفة بنوته ومعرفة من هم آباءه وسبب وجوده، فسيكون من الصعب إن لم يكن من المستحيل عليه أن يتقبل فكرة أن والديه قد تخلوا عنه بكل بساطة وبالأخص الأم التي تقاسم معها حياة رحمية مشتركة لمدة تسعة أشهر ثم تتخلى عنه بكل بساطة وكأنها تخلت عن خرقة بالية وليس عن فلذة كبدها.

هذا التخلي سيبقى كندبة في حياة الطفل مجهول النسب والذي سيصبح في المستقبل راشداً وقد لا يتمكن من ربط علاقات مستمرة مع الآخرين بسبب عدم تعرفه على ذاته لحرمانه من حقه في معرفة الأصول البيولوجية التي ينتمي إليها. وفي غياب تكفل نفسي واجتماعي إرادة سياسية بصفة خاصة، فقد نزيد من عزلة هذه الفئة وقد يبعث بها المجتمع إلى

ممرات مسدودة تؤدي بهم إلى طريق الانحرافات السلوكية وذلك كرد فعل على الظلم الذي ألحق بهم لا لشيء إلا لأنهم أطفال مجهولي الهوية.

المراجع

Berger,M. (1997). L'enfant et la souffrance de la séparation : divorce, adoption, placement. Paris, France : Dunod.

Buraux,A.(2011).filiation,scène primitive et roman des origines. Enfance et psy,1 nº 50.ERES. récupéré de https://w.w.w.cairn.info/revue-enfances et psy-2011-1-pages-23.htm.

Dayan,J.(2016). Le roman familial de l'adolescent abondonné.édition GREUPP « Adolescence » , T4.34,nº4. Récupéré de https://w.w.w.cairn.info/revue-adolescence-2016-4-pages695.htm.

De lajonquière,L., Periera,M.R.(2014). Le roman familial contemporain et l'enfant- symptôme :De qui sont les enfants d-aujourd'hui ?.Le Télémaque.2 nº 46. Presses universitaires de Caen. Récupéré de https://www.cairn.info/revue-le-telemaque-2014-2-page-41.htm.

Dolto,F., Rapoport,D., This,B. (1990). Enfants en souffrance. Paris, France : Stock /Laurrence Parnoud.

Lelord,F.,André. (2001). La force des émotions : Amour, Colère, Joie. Paris, France : Odile Jacob.

Loutre,N.(1981). Le devenir d'enfants abandonnés : Le tissage de lien. Paris, France : Du pasquier.

Marcelli,D., Cohen,D. (2016). Enfance en psychopathologie. Issy- les- Moulineaux, France : Elsevier Masson.

Pauss,V., Grandry,M (2001). En mal d'appartenance, (volume 56), pages 142-151, in revue de l'union national des associations de sauvegarde de l'enfance, de l'adolescent et des adultes, n° 3, Paris, France : Elsevier.

Soulé,M., Lauzanne,K.(2004). La carence des soins maternels et ses effets, in Nouveau traité de psychiatrie de l'enfant et de l'adolescent, (volume 4), pages 2239-3141. Paris, France : Presse universitaires de France.

Verdier,P., Sooulé, M. (1986). Le secret sur les origines : Problèmes psychologiques, légaux, administratifs. Paris, France : ESF.

Vidailhet,C. (2008). Les enfants abandonnés. https://cph.medecine.univ.lorraine.fr.

Vincent,M. (2005). Les maladies d'adolescence. Paris, France : In press.